باب التقريظ والانتقاد

العربيَّة المحكية في مصر

The Spoken Arabic of Egypt.

يسبح المرء في بلاد اسبوعًا من الزمان فيكتب عنها كتابًا ضخمًا وابناء تلك البلاد الذين ولدوا فيها وشبُّوا واكتهلوا وشاخوا لا يجسرون على تأليف كتاب مثلهُ. ويشرع الواحد في درس علم من العلوم كعلم القانون او علم الكيمياء فلا يمضي عليهِ سنة حتى تسوّل لهُ نفسهُ تأليف كتاب فيهِ يشرح غامضهُ ويقرب قاصيهُ والثقة من علماء القانون وعلماء الكيميا يستصعب تأليف كتاب فيهما. ويتعلَّم واحد لغة اجنبية يعاني المشاق في حفظ مفرداتها وجملها فيرى ان يسهّل على غيرهِ ما وجدهُ شاقًّا فيؤلف فيها القواميس والمذاكرات. وعلى هذا الاسلوب وضع سيبويه الكتاب والفيروزبادي القاموس وهما غريبان عن العربية وجرى في خطتهما كثيرون من علماء الافرنج حتى كأن الجنس الآري من الفرس والاوربيين احرص على هذا اللسان من اهلهِ

ولقد كانت العربية المحكية تخالف العربية المكتوبة من عهد ابن خلدون وما قبلهُ ويظهر من ادلَّة لا محل لبسطها هنا انها كانت تخالف العربية المكتوبة دائمًا ولم يحاول احد من ابنائها ان يجمع مفرداتها ويضع قواعد لتصريفها وتركيبها ويدعو الناس الى الاقتصار على استعمالها بدل اللغة المكتبة كما لم يحاول احد من الانكليز ان يجمع لغة البحَّارة والسمَّاكة منهم ويدعو قومهُ الى الاقتصار عليها. لكن قد يسهل على الاجنبي ما لا يسهل على ابن اللغة ولذلك حاول بعض الاوربيين جمع اللغة المحكية في مصر والشام ووضع القواعد لها. والكتاب الذي امامنا الآن آخر كتاب وُضع لهذا الغرض وضعهُ القاضي ولمور احد قضاة محكمة الاستئناف الاهلية

والبحث في تنقيح العربية المحكية وكتابتها قديم طرقناهُ في المقتطف منذ احدى وعشرين سنة كما ترى في الصفحة ٣٥٢ من المجلد السادس حيث قلنا ما خلاصتهُ

"ان اكثر الذين نجحوا بسعيهم وجدهم من الافرنج كانوا يدرسون العلوم العالية مثل الجبر والهندسة والفلسفة الطبيعية والميكانيكيات وهم يتعاطون احقر الاعمال ولا يعرفون من العلم سوى القراءة البسيطة. ذلك لان لغة الكتب عند الافرنج لا تفرق كثيرًا عن اللغة

التي يتكلمون بها فيفهم العامي منهم لغة كتاب العلم كما يفهم العامي منا قصة بني هلال. وينتفع عامتهم بالكتب كما ينتفع خاصتهم بها ولهذا ترى سبل النجاح مفتوحة لخاصتهم وعامتهم على حدٍ سوى و بضاعة العلم رائجة عندهم ايّ رواج . فترى سائقة المركبات وحارثي الارض يشتركون في الجرائد و يقتنون الكتب اكثر من اكثر خاصتنا وما هذا الاّ لانهم يفهمونها وينتفعون بها. اما نحن المتكلمين باللغة العربية فكتبنا مكتوبة بلغة غير اللغة التي نتكلمها والبعد بينهما كالبعد بين الفرنسوية والانكليزية او كالبعد بين اللاّتينية والايطالية فلا يقدر عامتنا على ادراك معاني الكتب ما لم يدرسوا لغتها وتصير ملكة فيهم . وهذا يقتضي وقتاً طويلاً ونفقةً طائلة واذا بقي الحال على هذا المنوال فلا امل ان يستفيد عامتنا من مطالعة الكتب. وبما ان العامة هم القسم الاكبر فلا امل بالنجاح التام. فاذا اردنا ان نطلب النجاح من بابهِ فقد اشار ذوو الالباب بواحد من ثلاثة امور وهي اما ان نستبدل لغتنا بلغة اخرى وهذا لا نرضاهُ لانفسنا ولا يرضاهُ غيرنا لنا مع انهُ ممكن ونخاف ان تدعو الاحوال اليهِ في مستقبل غير بعيد

واما ان نكتب كتبنا باللغة التي نتكلم بها كما فعل الايطاليون والاروام وغيرهم من الامم الذين فسدت لغاتهم بتوالي الازمان وتسلّط ليل الجهل ثم لما عادت اليهم شموس العلم لم يروا سبيلاً لارجاع لغاتهم القديمة فاكتفوا باللغات الشائعة حينئذٍ وهذبوها وكتبوا كتبهم بها. فان اللغة اللاتينية مثلاً فسدت في مدة انحطاط الدولة الرومانية ولما تبين للكتّاب الذين قاموا في القرن الثاني عشر وما بعدهُ ان لغة التكلم صارت بعيدةً جداً عن لغة الكتب جعلوا يكتبون حسب لغة التكلم وكانت الكتب الاولى التي كتبت باللسان الايطاليّ شعريةً واما الآن فصارت الكتب تؤلف في ذلك اللسان لا في اللاتينية مع ان اللاتينية بقيت مستعملة في التأليف ولكن على قلة . ولو كان الايطاليون لا يكتبون الآن الاّ باللاتينية ما كان العلم منتشراً في بلادهم . وما يقال عن الايطاليين يقال عن الاروام الذين تركوا اللغة اليونانية القديمة واعتمدوا على الرومية ونسبتها الى اليونانية نسبة العربية التي نتكلم بها الى العربية التي نكتب بها . ولا يخفى ان اليونانية واللاتينية لغتان قديمتان شريفتان وسيعتان انتشرتا وقتاً ما في كل العالم المتمدن وكتبت بهما كتب الفلسفة والشريعة والعلم والديانة ومع ذلك كله قضت شرائع الطبيعة على اهلهما ان يهملوهما . وما من مانع يمنعنا عن مجاراتهم فنضبط لغة التكلم الشائعة في البلدان العربية ونكتب كتبنا بها ونكون قد جرينا المجرى الطبيعي القاضي على اللغات ان تتغير بتغير الازمان

واما ان نعلّم اولادنا التكلم بالعربية الصحيحة حتى تصير ملكة فيهم فيتكلمون كما

يكتبون . وهذا على ما نظن اشرف الطرق وآمنها وانفعها لان العربية الصحيحة واسعة المتن مضبوطة القواعد غنية بالكتب يمكنها ان تجاري العلم اكثر من كثير من لغات الارض ولا سيما لان فيها بابين وسيعين وهما باب التعريب وباب النحت فلا تحتاج الاَّ مجمعاً لغوياً من اهل العلم والفضل يتحكم في تعريب الكلمات او نحتها لكي يجري استعمالها في كل الديار العربية . فاذا تمَّ لها ذلك واجبر المعلمون تلامذتهم والآباء ابناءهم على التكلم باللغة العربية الصحيحة فربما لا يمضي عشرون او ثلاثون سنة حتى تصير لغة التكلم مثل لغة الكتابة وتحصل الفائدة المطلوبة من اللغة "

هذا ما كتبناهُ في المجلد السادس من المقتطف في الجزء السادس منهُ الصادر في غرة نوفمبر سنة ١٨٨١ ولم نكن قد رأينا كتاب سبتا ولا ما ماثلهُ من الكتب وانما كنَّا نشعر بالحاجة الى التقريب بين اللغة المحكية واللغة المكتوبة لاننا كنا نضطر ان نشرح قواعد العلوم لتلامذتنا باللغة المحكية حتى يفهموها . ودعونا الكتَّاب الافاضل الذين يغارون على الوطن لكي يبدوا رأيهم في هذا الموضوع فلبى دعوتنا كثيرون منهم كالمرحوم الشيخ خليل البازجي والجمعية الادبية الدمشقية واسعد افندي داغر وكاتب اخق اسمهُ وسمَّى نفسهُ " الممكن " . وذهب اكثرهم الى ان اشاعة اللغة المكتوبة خير من كتابة اللغة المحكية . وكثيراً ماقلنا الاوربيين والاميركيين الذين ذاكرونا في هذا الموضوع انهُ لو اهتمَّ محمد علي باشا جد العائلة الخديوية بكتابة اللغة المحكية في مصر والشام وجعل الكتابة بها وحدها لما وجد في ذلك كبير مشقة وكنا نجد اللغة المكتوبة الآن قريبة من اللغة المحكية قرب اللغة الايطالية المكتوبة من اللغة الايطالية المحكية ولكن اقتصار المتعلمين في مصر والشام على الكتابة باللغة المعربة وشيوع الكتب والجرائد فيها ولا سيما في السنوات الاخيرة واعتياد اكثر الذين يعرفون القراءة على مطالعة الجرائد كل ذلك عضد اللغة المعربة وقرَّاها حتى صار اهلها متعذراً ان لم يكن مستحيلاً ولذلك لا نطمع بكتابة اللغة المحكية الآن ولا نشير بهِ ولكننا نطمع ونشير بالتوسُّع في اللغة المكتوبة حتى تدخل فيها كل كلمة محكية لا تقابلها كلمة فصيحة مألوفة سواء كانت الكلمة المحكية مما وضعهُ العامة او نحتوهُ او نقلوهُ عن لغة اجنبية . ونطمع ونشير ايضاً بالتوسُّع في التعريب حتى تجاري لغتنا لغات اوربا ونشير ايضاً بالحرص على كل ما هو حسن من المعاني والاستعارات العامية والمنقولة عن اللغات الاجنبية . اي يجب علينا ان نجوِّز للعربية ما يجوزهُ الانكليز للانكليزية والفرنسويون للفرنسوية وكل المتكلمين بلغة حية للغتهم

ولذلك فاهتمام حضرة القاضي ولمور ومن جرى مجراهُ بضبط اللغة المحكية جاء بعد اوانهِ واذا

تبارى هو والمحافظون على اللغة المعربة فسعيهم هو الغالب اخيرًا الاَّ اذا تسلَّطت على البلاد قوة قاهرة عندت الساعين في ضبط اللغة المحكية وكتابتها. وقد اشار القاضي ولمور الى ذلك حيث قال ان ارباب الصحف اولى من غيرهم بكتابة اللغة المحكية ولكن لا بدَّ من ان يعضدهم في ذلك اهل الحل والعقد وهذا نصُّ عبارته

A movement in favour of the vernacular would best be started by the press, but it would need to be strongly supported by men of influence.

لكننا لا نرى الامر آتيًا على رغبته فان ارباب الصحف احرص الناس على اللغة المعربة وارباب الامر ليسوا في العير ولا في النفير

ولم يكتفِ المستر ولمور بضبط اللغة المحكية او كما سماها لغة القاهرة بل اشار بكتابتها بحروف رومانية واضاف اليها بعض العلامات لتدل على الحروف العربية التي لا مثيل لها في اللغات الرومانية . وكتابة العربية بحروف رومانية لا غبار عليه فان العرب كتبوا بالقلم الكوفي والنسخي والسرياني ولا يتعذر عليهم ان يقتبسوا ما شاءوا من صور الحروف للدلالة على اصوات لغتهم . وقد اشرنا بذلك غير مرة وبيَّنا المزايا الكثيرة من استعمال الحروف الرومانية بدل الحروف العربية ولكننا نرى المستر ولمور والاستاذ سايس (الذي قدم مقدمة لهذا الكتاب) قد جاريا كل الذين انتقدوا على الكتابة العربية خلوها من الحركات. ولا ندري كيف ذهب عنهم ان هذا الاختصار في الكتابة العربية مزية لها مثل الكتابة المختصرة في لغتهم وان بعض النوابغ من علمائهم يودُّ لو كانت كتابتهم كذلك . نعم ان كلة "كتبت" لا يُعلَم هل هي كَتَبْتُ او كَتَبْتَ او كَتَبَتْ او كُتِبَتْ الخ وكلة كتاب لا يعلم هل تلفظ كِتَاب او كَتَاب او كُتَاب ولكن ألاَ يرى المستر ولمور ومن جرى مجراهُ ان القرينة تكفي للدلالة على الكلة الاولى والسمع يكفي للدلالة على لفظ الكلة الثانية .وهل يطمع هو او غيرهُ ان يتعلم لغة اجنبية من غير ان يسمع لفظها من العارفين بها ومن غير ان يرى فيها كتابة ذات معنى. وها مطابعنا تطبع مئات من الكتب كل عام ومئات الالوف من صحف الاخبار وكلها تباع وتقرأ وتفهم ولا نضطر الى وضع حركة فيها الاَّ نادرًا عند خوف اللبس او غموض المعنى لان من يقرأ في لغة يفهمها لا يضطر ان يرى كل حرف من كلماتها والاَّ تعذَّر عليه قراءة الخط فان حروفًا كثيرة منهُ لا تظهر مطلقًا ولاسيما في خط علماء الانكليز ومع ذلك لا تتعذَّر قراءتهُ وهذا امر لا ينازع فيه . ونحن لا نرى قراءة الكتابة العربية التي لا شكل فيها اصعب من قراءة الكتابة المشكولة او من قراءة الكتابة التي وُضعت فيها حروف بدل الشكل . واذا قرأحضرتهُ صفحة من كتاب

انكليزي كالتوراة مثلاً وقرأنا نحن صفحة تماثلها من التوراة العربية المطبوعة من غير شكل فلا نظن انهُ يفهم بلغتهِ اكثر مما نفهم بلغتنا او انهُ يخلُّ من دماغنا اكثر مما يخلُّ من دماغهِ . اي ان الجهد الذي نبذلهُ نحن في قراءة كتبنا العربية المطبوعة من غير شكل لا يزيد على الجهد الذي يبذلهُ هو في قراءة كتبهِ الانكليزية

ثم ان وضع العلامات للحروف الرومانية يزيل المزية المطبعية التي نودُّ ان نترك حروفنا لاجلها . ولما كانت الحروف الرومانية اقل من الحروف العربية عددًا فيستعاض عن الناقص منها بقلب حرف يقاربهُ فيقلب حرف t هكذا + للدلالة على الطاء وتستعمل الحروف y, u, a للدلالة على الالف والواو والياء والحروف i, o, e للدلالة على الفتحة والضمة والكسرة ولا تستعمل هذه الثلاثة الاَّ عند غموض المعنى او خوف اللبس كما تستعمل الحركات العربية الآن . و يستعاض عن علامة الشدَّة بتكرير الحرف وعن نون التنوين بحرف n يوضع بعد علامة الضمة او الفتحة او الكسرة وعن الهمزة بحرف a مقلوباً فتقوم الحروف الرومانية مقام الحروف العربيَّة تمامًا فتبقى علامات البناء والاعراب على حالها

وقد عني المستر ولمور بجعل الحروف دالة على الاصوات وهو عناءٌ باطل لان اصوات اللغة تعدُّ بالمئات ونحن نكتفي بعشرين او ثلاثين حرفًا للدلالة عليها كلها . اما كون الاصوات كثيرة فلا يتكرهُ احد ينعم نظرهُ في ذلك واوضح دليل نذكرهُ لهُ علامات الفونوغراف فان اشكالها المختلفة لا تكاد تحصى ولو كانت الاصوات واحدة حسب الظاهر . فاخصر الطرق واصحها ان تبدل الحروف العربية بحروف رومانية كما هي ثم تكتب الكلمات العربية بالحروف الرومانية كما تكتب بالقلم النسخي الآن وكما كانت تكتب بالقلم الكوفي فتكتب الكلمة ملك هكذا Mlk واذا اريد الفرق بين مَلَك ومِلك كتبت الاولى Melek والثانية Melik ومزايا هذا الاسلوب كثيرة لا تخل ببسطها هنا

وليس من الانصاف ان يبخس المستر ولمور حقهُ فانهُ تعب في ضبط لغة القاهرة تعب سيبويهِ في ضبط لغات العرب ووضع في ذلك كتابًا فيهِ نحو ٤٠٠ صفحة مشحونة بالفوائد وغرضهُ من اشرف الاغراض وانبلها وهو تسهيل نشر العلوم والمعارف باللغة العربية وتسهيل التكلُّم بالعربية على الاجانب لكنَّ اسلوبهُ لا يوصل الى الغرض الاول في رأينا بعد ان نهض ابناء العربية الى احياء اللغة المعربة واكثروا من استعمالها ونشر الكتب والصحف فيها ولا سبيل لتحقيقهِ بالتعليم الجبري ولو ظن ان سنتين تكفيان لذلك لانهُ يقتضي عشرة آلاف معلم على الاقل وهؤلاء لا ينبتون من الارض ولا يهبطون من السماء